

كورونا وفلسطين... مجهولية الحاضر والمستقبل: تأملات من الواقع الفلسطيني المعاش في الضفة الغربية

هالة خلاوي، سوزان متولي، ونأم حمودة

معهد الصحة العامة والمجتمعية، جامعة بيرزيت

٢٠٢٠-١٠-٢

وصف للواقع الفلسطيني: ما قبل وخلال كورونا

تشهد الأرض الفلسطينية المحتلة أحد أسرع معدلات تزايد حالات فيروس كورونا في العالم وقد ارتفع عدد الحالات من ٨٠٠ الى أكثر من ٥١٠٠٠ حالة مسجلة من ٢٤ حزيران حتى ١ تشرين الأول، وجاء هذا التزايد بعد الإشارة الى فلسطين كحالة نجاح في التعامل مع الجائحة في بداياتها، ويستمر هذا التزايد في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية وصحية محفوفة بعدم الاستقرار واللايقين الذي يتصف به الواقع الفلسطيني في ظل الإحتلال الإسرائيلي .

لقد ساهمت القرارات السياسية الاسرائيلية كالاعلان الرسمي عن ضم أجزاء من الضفة الغربية في تفاقم هذه الأزمة والتي تزامنت مع حجز أموال المقاصة¹ من قبل سلطات الاحتلال واستمرار انتهاكاته في ظل الجائحة الأمر الذي زاد من حالة القلق والتوتر لدى الفلسطينيين خلال هذه الفترة والذي هدد ويهدد قدرتهم على التعامل مع الجائحة وتبعاتها بالشكل الأمثل.

تهدف هذه المدونة الى إبراز تجارب الفلسطينيين في الضفة الغربية وطرق التعايش مع الوضع الناجم عن الجائحة استنادا الى مقابلات معمقة قمنا بإجرائها مع ٣١ شخصا من كلا الجنسين ومن مختلف الأعمار ومن تجمعات سكانية متنوعة تشمل المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية بما في ذلك المناطق المصنفة "ج"²

¹ أموال المقاصة: هي أموال يجمعها الاحتلال ويصرفها للسلطة الفلسطينية ويستخدم قسم أساسي منها لدفع رواتب الموظفين الحكوميين/العموميين الفلسطينيين ويعتمد عليها الاقتصاد الفلسطيني بشكل أساسي حيث أدى جلّ السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية من جميع الاتفاقيات مع الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية بعد الإعلان عما يسمى بصفقة القرن إلى حجز هذه الأموال وتفاقم الركود الاقتصادي في فلسطين.

²مناطق ج: أحد مناطق تقسيم اتفاقية أوسلو لأراضي الضفة الغربية وتشكل حوالي ٦١% من أراضي الضفة الغربية حيث تكون السلطة الفلسطينية مسؤولة عن تقديم الخدمات الطبية والتعليمية فيها ولكن السيطرة الأمنية والإدارية عليها للسلطات الاسرائيلية.

(كالأغوار ومنطقة شمال غرب القدس)، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المقابلات تم إجراؤها على فترات زمنية مختلفة امتدت من بداية شهر نيسان حتى منتصف شهر تموز من عام ٢٠٢٠.

فلسطين وكورونا: الإغلاق الشامل وإجراءات وجاهزية الحكومة

في أوائل آذار المنصرم سُجلت أول حالات إصابة بفيروس كورونا في مدينة بيت لحم وبناء على ظهور هذه الحالات اتخذت الحكومة الفلسطينية جملة إجراءات مشددة لمواجهة تفشي فيروس كورونا تشمل الحجر الصحي والإغلاق الشامل لكل مناحي الحياة في الضفة الغربية باستثناء النشاطات الحيوية كالمستشفيات والمخابز وغيرها، ونبع ذلك من القلق من عدم القدرة على تحمل عواقب الانتشار الواسع للفيروس كما أشار أحد المشاركين "أحنا ما عنا لا خط دفاع صحي ولا خط دفاع اقتصادي في حال لاسمح الله كان بده يتفشى الفيروس ما عنا من مرة".

"ابقوا في منازلكم" هي الجملة التي تردت على مسامع جميع الناس بانتظار قرارات وإجراءات الحكومة بالمؤتمرات الصحفية مرتين على الأقل يومياً خلال فترة الإغلاق. وقد ساعدت هذه الإجراءات في البداية على السيطرة على انتشار الفيروس وانخفاض عدد الحالات. وكانت هذه الإجراءات السريعة و الاحترافية كفيلة بزيادة ثقة الشعب بالحكومة حيث اعتبرت هذه الفترة من أكثر الفترات التي تعززت فيها هذه الثقة. [بينت دراسة](#) قامت بها الجامعة العربية الأمريكية ل١٧٠٠ شخص تم اختيارهم بشكل عشوائي بين الثلث الأخير من نيسان والأول من أيار أن ٩٣% من المشاركين أقرروا بأنهم على ثقة بأن فلسطين سوف تتغلب على كورونا. وفي [استطلاع لأوراد](#) تم في أواخر شهر آذار ذكر ان تقريبا ٨٠% من المشاركين قيموا أداء الحكومة خلال أزمة كورونا بالإيجابي. وقالت إحدى المشاركات في دراستنا معبرة عن الثقة بالحكومة "وجود سلطة وطنية أو منظمة مسؤولة عن اتخاذ قرارات متعلقة بهذا الموضوع اعطاني شوية ضمان". وقالت مشاركة أخرى عن أداء الحكومة "أنا اللي شايفته الأداء العام جيد، جيد جداً"، و عبرت هذه المشاركة عن حملات التكافل الاجتماعي التي تبناها المجتمع المحلي من أجل تعزيز صمود أبناء وطنهم ومجتمعهم، فتعددت المبادرات الاجتماعية لمساعدة المحتاجين مادياً والتي برأيها يُعزى لها الدور الأكبر في تجاوز هذه الأزمة أو على الأقل التخفيف من حدتها وتعزيز نفسيات أفراد المجتمع فقالت "اللي بقويني انه اشوف أكبر عدد ممكن من الناس متجاوبة لما

اشوف مبادرات إيجابية للتكافل الاجتماعي، لما اشوف اي نعم في عنا اشكاليات و اخطاء في إدارة الأزمة سواء صحيا أو أو بس الصورة العامة جيدة ... هاد بقوي و بدعم نفسيا هذا هو اللي بدعمني انا نفسيا".

كما يجدر بالذكر أن المبادرات الاجتماعية كانت عديدة وساعدت على تغطية عجز السلطة عن توفير بعض المعدات الصحية التي عمد الاحتلال إلى عرقلة الحصول عليها. فعلى سبيل المثال، عمل مصنعان في مدينتي الخليل وغزة على المباشرة بإنتاج اللباس الوقائي والكمادات والتي هدفت لسد الحاجة المحلية والتصدير للخارج، كما قامت جامعة القدس بإنتاج جهاز تنفس طبي قابل للتصنيع محليا لمساعدة المرضى والمساهمة في سد النقص في الأجهزة.

ولكن مع استمرارية الحجر الصحي لأكثر من شهر وما ترتب عليه من عواقب اقتصادية في ظل غياب نظام حماية اجتماعية بدأت الجموع تتسائل عن مدى جهوزية الحكومة والدولة لمواجهة الجائحة بشكل حقيقي حيث قال أحد المشاركين "حسيت انه السلطة وصلت لمرحلة الضياع يعني خلص بطلت عارفة شو بدها تعمل، ويلها الاقتصاد ... وويلها صحة الناس"، فسرعان ما شعر الناس بالعواقب الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة للجائحة واكتشافهم لعدم جاهزية الحكومة للتصدي لهذه الأزمات وعدم تنفيذ خطة شاملة لتعويض الخسائر المادية والأضرار النفسية للجائحة. عبر عن ذلك أحد الأطباء المشاركين في المقابلات قائلا:

"طيب ما الها السلطة ٢٧ سنة الها وزارة الصحة ٢٧ سنة ... ليش احنا على اول مطب حقيقي نوعا ما تكشفنا؟ تمام؟ يعني انه بقلك وين كانوا؟ ليش ما كان في تحضيرات أساسية؟ انا قلتلك لما يكون في هرمية بكل اشي ومؤسسات حتى لو طرأ اشي جديد انتي بتتأقلمي معه، بس كثير شغلات ما كان عندك الحد الادنى اللي هو في الاساس كان لازم يكون موجود في الحياة الأساسية في تحضيراتهم ... في تقديم الخدمات لاحظت انه كان يكون في نوع من الكذب لما يقولو الامور ماشية، حسيت انه كورونا عرت بعض القطاعات كمان في الدولة وجاهزيتها"

كما وتحدث العديد من المشاركين عن دور وتأثير الاحتلال على تنفيذ السلطة لإجراءاتها لمواجهة الفيروس فقال أحد المشاركين "طبعاً بأثر الاحتلال لأنه في اي لحظة ممكن يهدمو جهود السلطة تبعتنا اللي صار لها أشهر بتشتغل عليها بحملات اعتقالات ... ممكن فايروس واحد يفوتوه.."

"احنا محكومين لسلطة المحتل حتى في المرض"

عبر العديد من المشاركين على أنه بالرغم من وجود الجائحة ما زال الاحتلال هو العامل الأساسي الذي يهدد حياة الفلسطينيين حيث قالت إحدى المشاركات "احنا وجعنا بيجي معظمه كالعادة من الاحتلال" ووصف مشارك آخر الاحتلال كالثوكة في حلق الفلسطيني، فبالرغم من الأوضاع النفسية والاقتصادية والاجتماعية المتردية الناجمة عن انتشار الجائحة، استمرت سلطات الاحتلال في بث الذعر بين صفوف الفلسطينيين، بممارسة حملات الاعتقالات والقتل وهدم المنشآت والمبالغة في تضيق الحركة ومحدودية التنقل. فممنذ بداية الجائحة قامت سلطات الاحتلال بمصادرة وهدم أو اجبار فلسطينيين على هدم ٤١٥ منشأة من منشآتهم والتي تمثل ارتفاع بمقدار ٥٨% عن المتوسط الشهري ما بين أعوام ٢٠١٧-٢٠١٩ الذي يُمارس من قِبل سلطات الاحتلال على الفلسطينيين بحسب [تقرير ٩-٢٢ أيلول ٢٠٢٠ لمكتب تنسيق الشؤون الإنسانية OCHA](#)، وتحدث أحد المشاركين من منطقة الأغوار عن ممارسات الاحتلال العديدة قائلا "الاحتلال غفل عن ضم الاراضي؟ للأسف لا، غادر جزء من مخططاته باتجاه الأراضي والمواطن الفلسطيني؟ للأسف لا.. شهداء موجود وضم أراضي موجود وضم الأغوار في المستقبل القريب للأسف كمان... هدم بيوت؟ واحنا بعز الطوارئ كان في هدم بيوت الفلسطينيين في الديوك التحتا³ من قبل الاحتلال".

عمل الاحتلال أيضاً على إحباط جهود السلطة الفلسطينية للحد من انتشار الفيروس من خلال سيطرته على الحدود ومناطق "ج" وعلى الواردات والموارد الأمر الذي حد من القدرة على احتواء انتشار الفيروس وسبب عجزاً في توفير المعدات الصحية الضرورية لمواجهة الجائحة وزاد تخوف المشاركين من عدم وصول المواد التموينية أو الأدوية كما عبر أحد المشاركين "التخوف انه احنا ما في عنا ضمان لانه احنا ما عنا سلطة على حدودنا". وعبرت إحدى المشاركات من سكان مدينة القدس أن "فش سيطرة فبالتالي بأي لحظة رح تخرب الاجراءات اللي عملناها طول هاي الفترة، في فترة منعوا يدخلو المواد الكحول وهاي الاشياء او حتى منعوا يعطو السلطة مصاري الضرائب كلها بتاثر على قدرة الناس كيف رح تواجهه، مناطق القدس السلطة ممنوع توصلها والاحتلال مش راضي يدخلهم ولا راضي هو يشرف عليهم".

إضافة إلى ذلك أشار عدد من المشاركين الى تعمد الاحتلال على نشر الفيروس من خلال ممارسات عدة، حيث قامت سلطات الاحتلال أيضاً- محبطة محاولات السلطة الفلسطينية على السيطرة على مناطق الضفة الغربية

³ عين الديوك التحتا أو الديوك: قرية فلسطينية من قرى محافظة أريحا تقع غرب أريحا بعدد سكان يقارب ٩٦٧ نسمة.

وإغلاق الحدود- بعمل فتحات في جدار الفصل العنصري وتسهيل تنقل العمال الفلسطينيين داخل الخط الأخضر⁴ دون اتخاذ التدابير الصحية اللازمة لحمايتهم من العدوى. وقد عبرت عن هذا الموضوع مشاركة من قفيلية قائلة "احنا صار في عنا حالات في قفيلية الاحتلال يفتح العبارات عشان العمال تهرب منها و ترجع منها بدون ما تعمل فحص .. هاد اشى سياسي و أثر علينا يعني احنا ما نحس فيها احيانا ما تشوفيهم الا جايين عامل مع تبع الحرارة و مثلا حاطينو اول البلد هاد احتمال معه الفيروس خذوه عاجوه.. فاحنا مش مسيطرين عكامل الوطن فهاد الاشى كثير بأثر... لو احنا مسيطرين عكامل الوطن اكيد رح نتحكم في كل حدود الوطن بس احنا لا".

كما وقام بعض من جنود الاحتلال بتسليح الهلع البيولوجي من خلال ممارسات تفسد إجراءات الوقاية [كالبصق](#) على الأشخاص الذين يتم اعتقالهم وأفراد عائلاتهم والممتلكات الخاصة بهم وأيدي المركبات المتواجدة على الشوارع خلال [حملات الاعتقال والتي استمرت في كافة مناطق الضفة الغربية خلال الجائحة](#).

كورونا والأزمة الاقتصادية

أما على الجانب الإقتصادي، واجه العديد من الأفراد والعائلات وخاصة اللذين يعملون في القطاع غير الرسمي وهم يشكلون [حوالي ٦٠%](#) من القوى العاملة أزمات اقتصادية ناجمة عن خسارة العمل او نقص في الرواتب وقال احد المشاركين "واحد حلف يمين بشهر رمضان حلف يمين انه طول شهر رمضان وانا بس بوكل عدس ما حدا اتطلع فيه لحد ما الزلما طلع عن كرامته لأنه عنده كرامة قلمه يا جماعة الخير وقفو معاي" وعبر عامل في داخل الخط الأخضر⁵ عن احتياجات عائلته قائلا "ابنك ما يبجي يسأل بابا من وين جبت بسأل ليش ما جبت". وقد دفعت هذه الأزمات الاقتصادية العديد من الأفراد للمجازفة والإخلال بالحجر الصحي للعمل وتوفير قوت يومهم وخاصة عمال المياومة في الضفة الغربية والداخل المحتل والذين يعتمدون بشكل أساسي على دخل يومهم لإطعام أنفسهم وعائلاتهم. وعبر تاجر من مدينة الخليل عن عمال المياومة من خلال تعاملاته معهم قائلا "هو بالنسبة اله يكون هو ممكن يموت وولاده يعيشو يموت وولاده ما يموتو من الجوع ممكن الواحد يضحي

⁴ العمال الفلسطينيين في داخل الخط الأخضر: هم مواطنون فلسطينيون ذو حملة هويات فلسطينية ويعملون لدى اسرائيليين داخل الخط الأخضر او في المستوطنات الاسرائيلية. يعمل معظم منهم بمهن كأعمال البناء والزراعة.

⁵ الخط الأخضر: هو الخط الفاصل بين الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ويفصل هذا الخط اليوم بين الأراضي الواقعة تحت السيادة الاسرائيلية وبين الأراضي الواقعة تحت السلطة الفلسطينية.

بحاله و يطلع في خضم ازمة كورونا يجيب فلوس اللي يخلي ولاده تعيش". وهذا دفع البعض للبحث عن مصادر رزق مختلفة والتي كانت شبه معدومة في ظل الأوضاع الصعبة والتي تمثلت -وغير محدودة- بحجز اموال المقاصة وعدم صرف الرواتب كاملة بل جزء منها فقط خلال فترة الجائحة وهذا بالتأكيد أثر على الموظفين وعائلاتهم بشكل مباشر وعلى القروض البنكية وعلى قدرتهم الشرائية وبالتالي انخفضت القدرة الشرائية بشكل عام. بالإضافة الى ذلك تأثرت قطاعات اقتصادية كثيرة بالأزمة الواقعة خاصة قطاع النقل والسياحة والمنشآت التجارية الصغيرة.

ومن جهة أخرى كان هناك عدم رضى من المشاركين عن توزيع المساعدات من قبل الحكومة للمتضررين في ظل غياب نظام حماية اجتماعية رسمي داعم، حيث أن البعض أشار إلى عدم وجود قنوات تواصل بين الحكومة والناس و غياب الشفافية في القرارات، بالإضافة الى توقيف المؤتمرات الصحفية التي كانت تشكل مساحة للتواصل المباشر بين الحكومة والمواطنين بعد فترة طويلة سابقة من الانقطاع عن هذا النوع من التواصل بسبب [تحولات سياسية داخلية](#)، حيث كانت هذه المنصة عامل شفافية وساهمت في تعزيز ثقة الناس في الحكومة خلال المراحل الأولى من الجائحة. وكما عبر أحد عمال المطاعم والذي كان منقطع عن عمله لأكثر من ٣ شهور في تاريخ إجراء المقابلة "الحكومة لازم يكون عندها توعية اكبر من هيك ، وإشي يجذب المواطن ويخليني اتابع البرنامج هاد واحس انه عنجد عشاني، المشاركة لو اشارك جهة معينة بالموضوع هاد بكون مبسوط جدا اني احس انه انا علي مسؤولية اتجاه هالبلد اتجاه هالناس اتجاه كل اشئ" وقد ذكر في نفس السياق أحد العاملين في القطاع الصحي في منطقة ضواحي القدس قائلا "الناس كانت تنتظر على مستوى المعلومة، تنتظرها من ناس عندهم السلطة واحد عنده القوة في مركز الحدث...مُطَّلَع على كل اشئ و يقدر يوصل المعلومة هاد مثلا في مرحلة من المراحل...الرؤية ما كانت واضحة عندهم [مشيرا الى وزارة الصحة] او انه الشخص ما كان على قد المسؤولية...فهاد خلق نوع شوية من التخبط و البلبلة في الشغل".

وفي ظل هذا الفراغ في التواصل والاتهامات بالفساد وعدم الشفافية في إدارة المساعدات وخاصة صندوق "وقفة عز"⁶ وما وصفه البعض بالتخبط في القرارات المتخذة، زاد التشكيك في احتمالية استغلال الجائحة لأهداف سياسية واقتصادية غير معلنة عند البعض. وقال أحد المشاركين الذي يعمل في القطاع الخاص في مدينة رام الله "صار في مشاكل كثير، أغلب اللي ما دفعوا لموظفينهم هم رجال متبرعين لصندوق وقفة عز،

⁶ وقفة عز: صندوق وطني تأسس لدعم العائلات المحتاجة والمتضررة بأزمة كورونا من خلال جهود وطنية للتبرع عبر حساب بنكي وذلك لتعزيز التكافل الاجتماعي وتخفيف آثار الأزمة (waqfetizz.ps).

انت تبرعت لصندوق وقفه عز عشان التسهيلات البنكية والتسهيلات الضريبية"، وكان هناك تشكيك في وجود الفيروس عند جزء منهم كمواطن من الجفتلك في الأغوار والذي قال "ان الفيروس ممكن يكون مصطنع ، ممكن انه يكون لتميرير نشاط سياسي ، ممكن يكون لتميرير نشاط اقتصادي" و قالت مشاركة من جنين "أن بعض الناس بنتقدوه وأنه هاد حكي فاضي و فش وفش مرض و هدول بضحكو علينا و هاي اشاعات". وعبر سائق تكسي في رام الله عن الذل المتجسد في الحصول على مساعدات وقفه عز وعدم الالتفاف للناس المحتاجين فعلا بنظره ونظر زملائه "وقفه عز اللي أطلقوها مع الاحترام لألهم مش وقفه عز وقفه مذلنا نسميها ما سألوا، الناس اللي ما الها خص أخذت والناس اللي الها حاجة ما اخدتش ومع أنوال ٧٠٠ شيكل مش المبلغ الكبير يقدم مع المواطن، وذلوهم ذلوا الناس روح عالبنك الفلاني". ويجدر الإشارة الى ان هذه الانتقادات والمعتقدات برزت مع ظهور العواقب الاقتصادية المترتبة على انتشار الفيروس خاصة بعد صرف أول دفعة من مخصصات وقفه عز وبعد مرور ما يقارب شهرين ونص على بداية الاغلاق الشامل وما ترتب عليه من انقطاع عن العمل وانخفاض الدخل عند البعض في ظل غياب منظومة ضمان اجتماعية شاملة. كما أضاف مشارك عن دور القيادات غير الفعال والوعود غير المنفذة قائلا "بتوعد الناس و بالآخر بتوفيش الناس مشنت معك و امننت فيك و انت بالآخر خذلتها فانت اساسا توعدش".

وعن طرق التأقلم التي اتخذها الناس للتعامل مع العواقب الاقتصادية للجائحة، فقد تعددت واختلقت أساليب وطرق التعامل من تدابير داخل البيت على مستوى الاسرة الى حراك على مستوى المجتمع والتي ساهمت في التخفيف من الأزمة، فعلى مستوى الاسرة قام العديد من الأفراد في المجتمع الفلسطيني بتقليص مصاريفهم حيث ذكرت احدى المشاركات "على مستوى إنه بده يشتري اشي للبيت هو بحاجة أو كان بخطط بده يشتري...على هذا المستوى بهاي الظروف ما بقدر لأنه في اولويات بقول إذا في أنا معي شوية مصاري بخليهم ما بعرف شو الواحد بصير معاه...ممكن يمرض ، ممكن اخليهم للعلاج ، ممكن اخليهم أكل وأشرب". أما على مستوى المجتمع، كان الحراك من خلال لجان طوارئ ومؤسسات المجتمع المحلي ومبادرات شبابية ومجتمعية فقد تم توزيع مساعدات كالمواد التموينية على العائلات المحتاجة والأدوية على كبار السن كما اوضح مشاركون من شمال غرب القدس و مخيمات اللجوء كمخيم عايدة في بيت لحم وبعض قرى رام الله والبيرة، حيث قال أحد المشاركين من قرية بيت دقو شمال غرب القدس "كنت مع لجنة شباب الطوارئ اجا واحد تلفون واحد بسأل فيه عن جرة الغاز بحكيه انت مش بس جرة الغاز هلا بتجيك جرة الغاز بس بدك تعرف انه احنا اهلك و احنا اخوانك وغير جرة الغاز هي في المحل الفلاني وهي في الصيدلية وهي في شحن الكهريا والدكان والخضرجي

وسلات غذائية، اي شي بلزمك احمل حالك وروح تناول والامور جاهزة مدفوعة" وتمكنت ايضا لجان الطوارئ من تقديم مساعدات في المدن ولكن بشكل اقل من القرى حيث أن تحديد العائلات والأشخاص المحتاجين في المدن اصعب من القرى نظرا لتباعد المسافات وللخصوصية التي يعيشها أهل المدن. وتجدر الإشارة إلى أن بعض القرى حصدت مساعدات جيدة من الأهالي المغتربين في الولايات المتحدة الذين حسب قول أحد المشاركين "كانوا يبعثوا فلوس للبلدية وزعي طرود عكل السكان المصاب والغير مصاب وحصلت مرتين وزعو او ثلاث اعطوهم".

كورونا والتأثير الاجتماعي:

أما على صعيد التأثير الاجتماعي للجائحة، ناشدت الحكومة بالالتزام بقرارات السلامة العامة والتباعد الاجتماعي والحد من الزيارات العائلية، فاصبحت الوسائل المتعارف عليها في المجتمع الفلسطيني لمقاومة والتعامل مع المحن المختلفة التي تشمل التقارب والتكافل والدعم الاجتماعي غير متاحة بأشكالها المألوفة، ودفعت الناس إلى إيجاد طرق بديلة للمحافظة على العلاقات الاجتماعية وأشكال التكافل الملائمة للتدابير الوقائية، حيث ذكر بعض المشاركين أن التواصل تركز على الوسائل الإلكترونية، كما وذكر بعض المشاركين وجود بعض الآثار الإيجابية مثل التقارب مع العائلة النووية و استغلال فترة الإغلاق لتطوير بعض المهارات والمواهب والرجوع الى النفس والسعي نحو تطوير الذات. ومن ناحية اخرى أثر التباعد الاجتماعي سلبا على أفراد المجتمع الفلسطيني، حيث منعت التجمعات بكافة أنواعها الأفراح وبيوت العزاء لمنع تفشي فيروس كورونا والسيطرة عليه حيث يعتبر التكافل الاجتماعي وتبادل الزيارات والسلام باليد من العادات الدارجة في المجتمع الفلسطيني، والتي تعتبر من أساسيات التضامن الاجتماعي والتي أحدثت فارقا حقيقيا في أوقات الشدة والأوضاع السياسية التي عاشها وما زال يعيشها الفلسطينيون تحت الاحتلال.

لقد أثرت هذه القيود على كافة الفئات العمرية وخاصة الأطفال ذو القدرة المحدودة على استيعاب الظروف الراهنة وخطورتها وأدت إلى عدم وجود مساحات للتفريغ النفسي خاصة مع الانقطاع عن الذهاب الى المدرسة، وفي هذا السياق قالت إحدى المشاركات "الأطفال تأثرت حالتهم النفسية عشان لازم يطلعو و يشوفو اطفال تانيين و يلعبو ومش فاهمين ايش اللي بصير"، وقال مشارك آخر عند الحديث عن ابنه " ابني يعني أنا عمره ٩ سنين صار عصبي يعني بحكي لي انا مش هيك كنت مفكر بدنا نعيد زي العطلة الصيفية ومشاوير ونطلع

نسهر ومش عارف انا لقيت حالي قاعد في البيت و فش الا تلفون او تليفزيون و العاب يعني نت، انه يعني هدول الاطفال شوي فاهمين بس برضو مظلومين، في النهاية يمكن اكثر ناس نفسيا تأثروا هما الاطفال". وكذلك الحال لكبار السن الذين اصبحت زيارتهم محدودة خوفا عليهم من الفيروس كما قالت احدى المشاركات مشيرة الى جدها الذي يعيش خارج الخط الأخضر وهي تعيش داخله "كانه الواحد صار عايش بعزلة نوعا ما مثلا انا سيدي كبير وكثير حابة اشوفو هو ساكن بكفر عقب رح اضطر اقطع حاجز اذا قطعت حاجز يمكن بصير صعب اني ارجع اصلا احنا ممنوع ندخل منطقة الحاجز اذا احنا سكان منطقة القدس إلا بسبب وخصوصا انه انا معي اقامة يمكن رجعتي تكون صعبة بس كثير حابة اشوفو بس خايفة اروح بحكي انه ممكن اكون معدية وانا مش عارفة وهو كبير بالعمر ومريض اروح اعديه بحكي لا سمح الله هو كبير واذا طولت الشغلة لايمتا بدني اضل مش شايفتو ومش متجمعين حواليه كيف واحد كبير يضل لحاله ممكن يروح وهو لحاله ومش شايفينه".

ومن الأمور التي ساعدت على تخفيف حدة التأثير الاجتماعي للجائحة كما أشار بعض المشاركين القاطنين في القرى هو وجود مساحات خالية وواسعة ساعدت على تخفيف وطأة الحجر المنزلي كما أشار لذلك أحد المشاركين "احنا عايشين في نظام قروي إنه الواحد بطلع بره البيت مش زي نظام المدينة انه عايشين بشقة مغلقة ممنوع نطلع من الباب ننزل للشارع. كنا نطلع بره بساحة البيت تحت الشجر بالحواكير هاد كان كثير ينسينا انه احنا موجودين بحجر منزلي هاد كان سبب إنه ما عنا تأثير نفسي"، على عكس سكان المدن الذي يعيش معظمهم في نظام شقق سكنية حيث لا مساحات واسعة وخالية للتفريغ عن النفس كما هو الحال بالمناطق الريفية.

"نهاية النفق مظلم"

وفي ظل هذه الظروف وصف المشاركون الحالة المحفوفة بعدم التأكد التي يعيشها الناس مع انتشار الفيروس والعواقب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية للجائحة بالتخبط وعدم الوضوح واللايقين وعدم التوازن الناتجة عن مجهولية الفيروس وعواقبه وضبابية المستقبل، كما أشار البعض لهذه الحالة بالتوهان والضياع والمشى للمجهول او كالموت البطيء وآخرون وصفوا الحالة بالكارثية. عبرت عن ذلك ممرضة من مدينة بيت لحم قائلة "يعني في زي اللي داخل بده يطلع مسافة انه مش عارف شو في ورا هو بير هو بحر هو جورة هو

في وحوش هو في غابة انه ماشي انا في طريق مش عارف انا شو بده يكون بعد هاد المنغلق، في فتحة صغيرة هاي اكيد رح نعدي منها بس لايش؟ شو رح نلاقي بكرأ؟" وقال أحد المشاركين "احنا عمالنا بنمشي باتجاه المجهول عم بنعيش كل يوم بيوم عم بنشوف شو بصير كل يوم وبناءا عليه عم ناخذ إجراءات يعني احنا ما عنا ابدا تاكد عن اي حالة" وأن "نهاية النفق مظلم". البعض الآخر من المشاركين أرجع الحالة التي نعيشها لعدم السيطرة والتحكم قائلاً "احنا زي الشطرنج، في قوى أكبر منا بتحرك هذا العالم وبتحرك هذا الوضع كله". وأشار المشاركون أيضا الى هذه الحالة التي نعيشها بعدم الضمان وعدم الثبات وعدم الاستقرار، الزعزعة، الإرباك، أو الإدراك أو عدم إدراك بوجودية أو أحقية الفيروس. ومن المهم الإشارة الى ان حالة اللايقين المعاشة في ظل انتشار فيروس كورونا هي حالة عالمية بالتأكيد ولكنها اتخذت بعداً مميزاً و اكثر تعقيداً في الواقع الفلسطيني كما ذكر سابقاً وكما ذكرت احدى المشاركات من مدينة رام الله " إحنا [مشيرة الى الشعب الفلسطيني] عايشين بمعادلة صعبه جداً جداً، ما بعتمد إنه في شعب في ال ٢٠٢٠ بعيش ظروف مثل ظروفنا او بعيش بظروف سلطتنا الوطنية الفلسطينية" وقال مشارك اخر "انا بقدر اوصفه إنه ازمه على ازمه بالنسبة للشعب الفلسطيني ... أزمه اللي هو الوضع القائم عتاً من زمان وضع الشعب الفلسطيني بالإضافة لشغلة الكورونا"

تأثير الجائحة النفسي:

عكس وصف المشاركين للحالة المعاشة في ظل انتشار الفيروس الوضع النفسي الذي يعيشونه، وعبر المشاركون عن الحالة النفسية لهم وتبعاتها الصحية عليهم حيث شعر العديد منهم بالتوتر والقلق والارتباك وبمشاعر الإحباط واليأس والضياع وفقدان الأمل وذكر معظم المشاركين ان "نفسياتهم تعبانة" وأن هذا التعب نابع من الخوف والقلق على أنفسهم وعلى احبائهم من الاصابة بالفيروس ومن عواقبه الوخيمة، و تنبغي الإشارة هنا الى ان هذا القلق والتوتر كان ذو حدة كبيرة خاصة في بداية انتشار الجائحة وذلك لان العامل الأساسي المؤثر في ذلك الوقت كان الخوف من الفيروس كمرض ولكن الاعتقاد كان ان الوضع الوبائي المحلي أقل شدة من التجربة العالمية التي تنصدر الأخبار والتي كانت مصدر هلع وذعر الناس في بدايات الجائحة و ساعد هذا الاعتقاد على زيادة الاطمئنان والتعايش مع الوضع الجديد، حيث قال أحد المشاركين "الفيروس الموجود عنا مش زي الفايروس اللي موجود في اميركا او بريطانيا او اوروبا مخفف كتير شفت كثير حالات بعيني انه حجرو حالهم مصارح عندهم اي اشي ضرهم". وينبغي الذكر الى ان الوضع الحالي مختلف مع الزيادة الكبيرة

في عدد الحالات منذ نهاية شهر حزيران الأمر الذي سمح للشائعات بأن تتغلغل بين الناس وأن يصبح افراد المجتمع ضحية الهراءات والتحليلات الشخصية والأخبار المغلوطة عن الفيروس مما زاد من حدة القلق والتوتر. كما وأثر عدم وجود فرص للتفريغ النفسي وانعدام خيارات الرفاهية الى زيادة صعوبة الأمر وأدت الى تقاوم شعور القلق والحزن والوحدة كما وذكر المشاركون ان القلق الاكبر ناجم عن مجهولية الفيروس.

التأثير النفسي للجائحة على المصابين بفيروس كورونا

يجدر التنويه الى التأثيرات النفسية التي عانى منها المرضى الذين أصيبوا بالفيروس والتي جعلت اصابتهم اشبه بالخطيئة لدى أفراد المجتمع حيث قال أحد المتعافين في مقابلتنا له " طب معقول انا سويت هيك بالبلد طب انا شو خصني؟ انا مخترتش المرض" وقال ايضا في وصفه لتعامل الناس معهم "الناس بتتعامل معنا كأنا مصدر وباء المحل اللي بنكون فيه بيشرود منه ... بعرفش إذا انا بقدر اعذرهم او لا هاد كله نتيجة الخوف نتيجة الجهل نتيجة الاضطراب نتيجة هاي الاشياء الناس كمان خايفة" كما أوضح هذا المشارك أن المرضى تعرضوا للتمتر من المجتمع الأمر الذي أحبط عزيمتهم بشكل كبير.

و قد امتدت اثار الجائحة لتشمل الصحة الجسدية لدى المشاركين، حيث أشار العديد منهم إلى بعض التأثيرات الجسدية الناجمة عن الحالة النفسية مثل آلام في الرأس والعضلات وارتفاع ضغط الدم ومن زيادة في الوزن ومن مشاكل في النوم وفقدان في الشهية وغيرها.

التعامل مع الضغوطات النفسية في الجائحة: استذكار تجارب سابقة

و كانت إحدى سبل التفريغ النفسي والتعايش مع الحجر ووجود الفيروس الطابع الإيماني الذي لجأ اليه البعض والاتجاه الى الروحانيات للتفيس عن ضغوطاتهم النفسية خلال فترة الحجر المنزلي حيث قالت احدى المشاركات "انا حسيت يعني اكثر اشي بساعدني اني امسك القرآن و اقرأ" و اخرى قالت " انا ما اتأثرت لا نفسياً ولا صحياً الحمد لله، الايمان والدين هو الراحة النفسية بالنسبة الي".

وكان الدور الأكبر للتخفيف من حدة الأوضاع الراهنة يعزى الى زيادة التكافل الإجتماعي الذي أشار إليه المشاركون، التكافل الذي كان حاضرا في أوقات الشدة التي عاشها الفلسطينيون سابقا في الانتفاضتين الأولى

والثانية⁷ حيث أشار العديد من المشاركين إلى أن هذه التجارب السابقة ساعدتهم إلى حد ما على التأقلم مع الوضع الحالي وذكرت إحدى المشاركات أن "هاي التجربة كانت موجودة عنا زمان يعني ذكرتنا في اشي احنا كنا مارقين فيه من قبل" وافاد بعض المشاركين وخاصة المشاركين الذين عاشوا الانتفاضة في شبابهم أن تجربتهم السابقة نمت لديهم العديد من الأساليب للتعامل مع الظروف الصعبة، مثل تدابير معينة لسد حوائجهم لفترة طويلة حيث قال أحد المشاركين "يعني البيت محضر حاله عنا رز و عنا العدس و عنا و عنا فبالتالي بنقدر نتحمل لفترة طويلة و هاي يمكن من وضعنا اللي عشناه هداك"، وتتوجب المفارقة هنا بين الاجيال التي عاشت الانتفاضة وتعلمت اساليب التعامل معها على خلاف الاجيال الصغيرة التي سمعت ولم تعيش ظروف صعبة مشابهة فبالتالي قد تختلف طرق تعايشهم ويختلف تأثير الجائحة والاعلاق عليهم.

كما وفارق المشاركون بين التجربة الفلسطينية في ظل الاجتياحات الناجمة عن وجود الاحتلال مع وضع الجائحة الحالية واستذكر العديد منهم تجارب الانتفاضة عند الحديث عن الجائحة، حيث أفاد المشاركون أن اوجه التشابه تجسدت في تقبيد الحركة في كلا التجريبتين ولكن مع وجود اختلاف حيث ان خرق منع التجول المفروض من الاحتلال كان له تبعات خطيرة على الحياة كما قالت إحدى المشاركات "طبعا يختلف هلا صح هو في منع بس منع محترم يعني انه مثلا طالعة لاشي بتحكي مع الشرطي بفهمك بس هناك ما فش اذا طلعت بدك تموت بتنتخ" كما وأن الالتزام بالبيت في الجائحة كان نابعا من الحرص على السلامة وليس مفروضا من المحتل لأهداف السيطرة والتضييق حيث كان خرق المنع في وقت الانتفاضة يعتبر شكلا من أشكال المقاومة على عكس الفيروس الذي كان الالتزام بالحجر الصحي فيه يشكل مسؤولية اجتماعية لمنع انتشار المرض كما قال احد المشاركين "كان خرق المنع كنا نقاومه [مشيرا للانتفاضة] هاد احنا ما بدنا نقاومه بدنا نلتزم فيه [مشيرا الى الجائحة]". وقال مشارك اخر معبرا عن الالتزام في الحجر المنزلي خلال الجائحة "يعني ما حدا سكر علينا الباب وبحكي انه ممنوع تطلع من الباب هذا لازم يكون إنضباط ذاتي منا".

ربما كانت كورونا حدثا صادما محليا و عالميا وما تبعها من فرض الالتزام في البيوت وعدم القدرة على العمل وتوفير القوت للأسرة والسفر وتأثر جميع مناحي الحياة تجربة لم تكن بالسهلة ولكن يجدر بالذكر والتنويه الى أن التجربة العالمية بكل صعوباتها و مساوئها كانت مضاعفة عند الشعب الفلسطيني بوجود الاحتلال الذي

⁷ الانتفاضة: مصطلح أطلق على الثورة الشعبية الفلسطينية ضد عناصر الجيش الإسرائيلي، وهي شكل من أشكال الاحتجاج الشعبي الفلسطيني على الأوضاع المزرية.

وصفه المشاركون "بالفيروس الحقيقي" والذي يعمل بشكل مستمر على تضيق حياة الفلسطينيين والحد من حرياتهم، وقال مشارك آخر واصفا لوضع الفلسطينيين قائلا " احنا عنا وبائين، عنا وباء دائم اللي هو الاحتلال و الكورونا اللي صارت عنا في فلسطين او في العالم كله.. بس احنا منفردين بالاحتلال عن العالم".

ولكن بالرغم من صعوبة الوضع ما زال الفلسطينيون يحيون بالأمل وأنهم سيتجاوزون هذه الأزمة حيث عبر أحد المشاركين عن أمله بتجاوز الأزمة الحالية كما حصل في ازمان سابقة قائلا "أنا عندي ثقة كبيرة يقينية بالأشخاص، انه احنا كشعب راح نتجاوز هاي المحنة لانه تجاوزنا عشرات المحن". وعبرت مشاركة اخرى أن الفلسطينيين بحاجة الى تضامن اجتماعي حقيقي لتجاوز الأزمة قائلة "كمجتمع رح نقدر نتجاوز هاي المسألة بنوع من أنواع التضامن الحقيقي والمهم جدا بعيدا عن الدعايات" وبحسب المشاركين فان هذه الأزمة أكدت أنه هنالك عدم جهوزية مؤسساتي وحكومي للتصدي للظروف الصعبة كما قال أحد المشاركين "فهي كشفت عدم جهوزيتنا لاشي اقل من جائحة مش الجائحة نفسها، عدم جهوزيتها لبعض الجوانب، للنشاطات اليومية"، وبناء على ذلك يطالب الجموع بتحول جذري في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمؤسساتية واعادة تشكيل المخيال والوعي الجماعي من اجل التصدي للأزمات الحالية والمستقبلية واستبدال مجهولية الحاضر بمستقبل أكثر اشراقا.

